

إحياء علوم الدين

من ضبط خنزير الشهوة وردّه إلى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدو والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والطرف والمساعدة وأمثالها ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردّها إلى حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتمال والعفو والثبات والنبيل والشهامة والوقار وغيرها . فالقلب في حكم مرآة قد اكتنفته هذه الأمور المؤثرة فيه وهذه الآثار على التواصل واصله إلى القلب .

أما الآثار المحمودّة التي ذكرناها فإنها تزيد مرآة القلب جلاء وإشراقا ونورا وضياء حتى يتلأأ فيه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب في الدين وإلى مثل هذا القلب الإشارة بقوله A إذا أراد ا ب بعبد خيرا جعل له واعظا من قلبه // حديث إذا أراد ا ب بعبد خيرا جعل له واعظا من قلبه أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة وإسناده جيد .

وبقوله A من كان له من قلبه واعظ كان عليه من ا ب حافظ // حديث من كان له من قلبه واعظ كان عليه من ا ب حافظ لم أجد له أصلا .

وهذا القلب هو الذي يستقر فيه الذكر قال ا ب تعالى ألا بذكر ا ب تطمئن القلوب . وأما الآثار المذمومة فإنها مثل دخان مظلم يتصاعد إلى مرآة القلب ولا يزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى إلى أن يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوبا عن ا ب تعالى وهو الطبع وهو الرين قال ا ب تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون وقال D أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون فربط عدم السماع بالطبع بالذنوب كما ربط السماع بالتقوى فقال تعالى واتقوا ا ب واسمعوا واتقوا ا ب ويعلمكم ا ب .

ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب وعند ذلك يعمى القلب عن إدراك الحق وصلاح الدين ويستهيئ بأمر الآخرة ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصور الهم عليها .

فإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أذن ولم يستقر في القلب ولم يحركه إلى التوبة والتدارك أولئك يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب كما نطق به القرآن والسنة .

قال ميمون بن مهران إذا أذنب العبد ذنبا نكت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع وتاب صقل وإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه فهو الران وقد قال النبي A قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر وقلب الكافر أسود منكوس // حديث قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر الحديث أخرجه أحمد

والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد وهو بعض الحديث الذي يليه .

فطاعة الله سبحانه بمخالفة الشهوات مصقلة للقلب ومعاصيه مسودات له فمن أقبل على المعاصي اسود قلبه ومن أتبع السيئة الحسنة ومحأ أثرها لم يظلم قلبه ولكن ينقص نوره كالمرآة التي يتنفس فيها ثم تمسح ويتنفس ثم تتمسح فإنها لا تخلو عن كدورة .

وقد قال A القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق //

حديث القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر الحديث أخرجه أحمد والطبراني في الصغير من حديث أبي سعيد الخدري وقد تقدم .

فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب .

ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والصدید فأی المادتين غلبت عليه حكم له بها وفي رواية ذهب به .

قال الله تعالى إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون فأخبر أن جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر وأنه لا يتمكن منه إلا الذين اتقوا .

فالتقوى باب الذكر والذكر باب الكشف والكشف باب الفوز الأكبر وهو الفوز بلقاء الله تعالى